الفصل الثانى
مدرسة بغداد
أو
مدرسة العراق
القرن السابع الهجرى
(الثالث عشر الميلادى)

قلد المسلمون الفرس والروم فى ضرب نقود عليها صور، وأخبار ذلك مفصلة فى رسالة المقريزى عن النقود الإسلامية وفى بعض كتب الأدب والتاريخ، وقلدوهم أيضا فى التصوير على المنسوجات وعلى الأوانى الزجاجية وعلى غير ذلك من أثاث بيوتهم، وكانت الحمامات أهم الدور التى عنى المسلمون بالنقش على جدرانها، وما لبثت صناعة التصوير فى الإسلام أن انتقلت إلى الكتب، وكان التطور والمدارس التى سنبدأ الحديث عنها فى هذا الفصل.

على أنه يجدر بنا قبل ذلك أن نذكر أن الموضوعات كثيرة التكرار فى التصوير الفارسى، ويرجع ذلك إلى أن المصورين إنما كانوا يعملون لتزيين دواوين الشعراء وقصصهم وبعض كتب الأدب والتاريخ، فاختار السلف من كل ذلك موضوعات نسج على منواله الخلف فى تصويرها.

وكانت أقدم المخطوطات الإسلامية المصورة بعض ما ترجم وألف فى الطب والعلوم والحيل الميكانيكية، وأشهرها كلها كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل للجزرى، ثم كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى؛ ولقيت الكتب الأدبية حظًا وافرًا من العناية وخاصة كتاب كليلة ودمنة ومقامات الحريرى، وكانت الصور تجىء فى كل هذه الكتب إيضاحا للمتن وشرحًا له.

أما الفرس فقد كانت أكبر عنايتهم بتصوير كتب التاريخ والتراجم التى يخلد فيها ذكر ملوكهم، ثم دواوين الشعراء وقصصهم وخاصة «بستان» سعدى و«كلستانه»، ثم ديوان حافظ والمنظومات وتزين بالصور فى أكثر عصور التصوير الفارسى.

اللوحة رقم (٢)

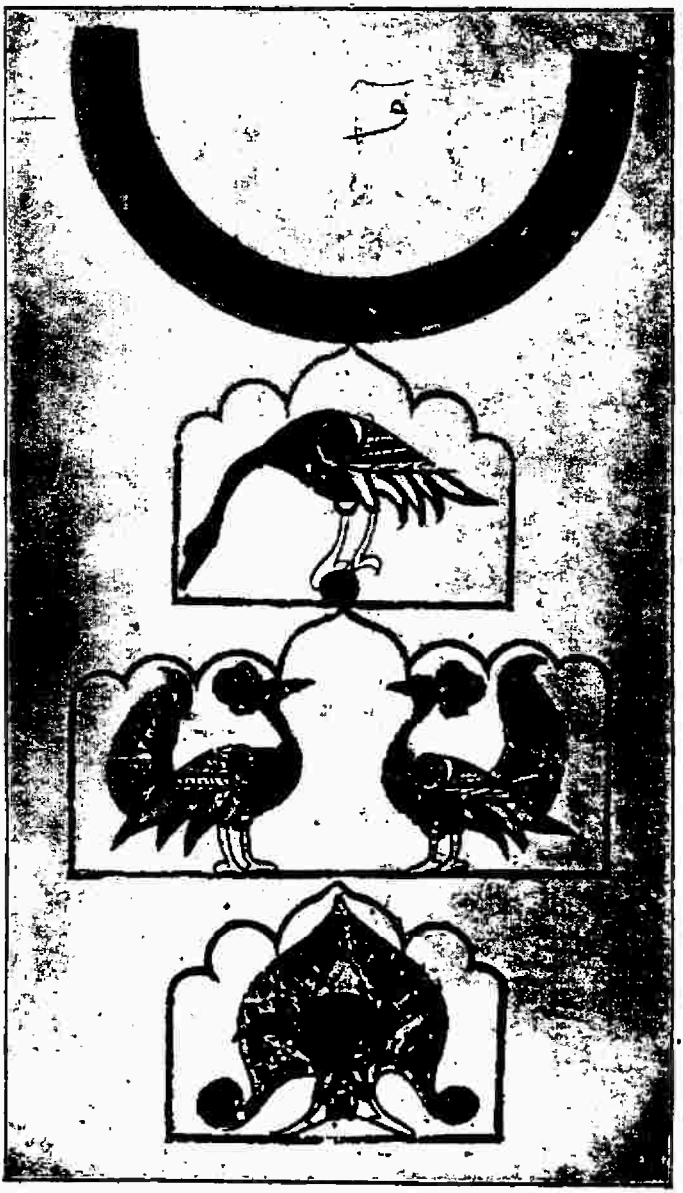

(شكل ٣)

الساعات ذات الطواويس – مدرسة العراق. القرن السابع الهجرى

من كتاب الحيل الميكانيكية للجوزى ومحفوظة الآن باللوفر

اللوحة رقم (٣)

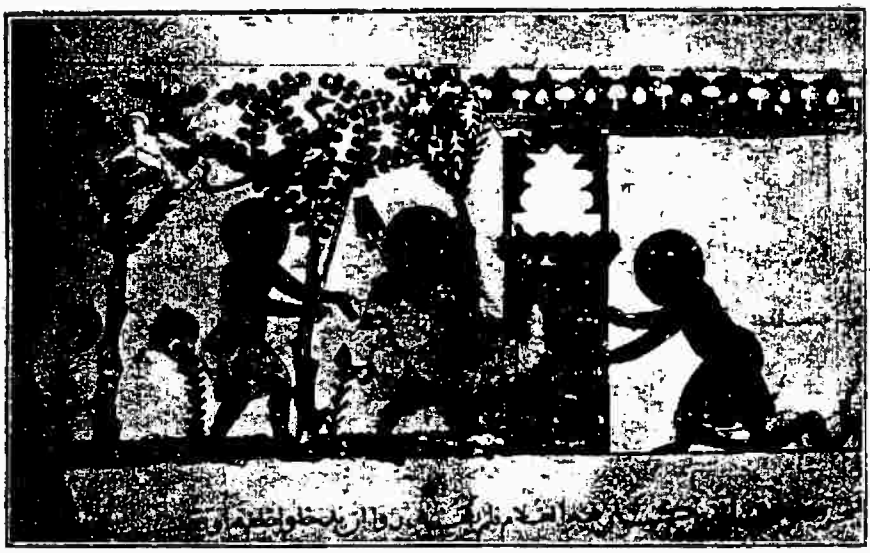

(شكلا ٤، ٥)

فوق – شاب لسعته حية وأقبل طبيب لإسعافه

تحت – رجل لسعته حية يستغيث

من ترجمة كتاب لجالينوس محفوظة بالمكتبة الأهلية فى فينا. القرن السابع الهجرى

وقد أشـرنا فى آخر الفـصل السابق إلـى أن أولى مدارس التصـوير فى الإسلام هى مدرسة بغـداد أو مدرسة العراق، وينسب إليها مـا رقمه الفنانون من صور مـصغرة فى المخطوطات الإسـلامية الـتى يرجع عهدها إلى خـلافة العباسيين.

وليست هذه المدرسة بالرغم من هذا الاسم عـربية بحتة كما أنهـا بعيدة عن أن تكون إيرانية خـالصة وإن كانت إيران تكاد تكون القطر الوحـيد الذى أينعت فـيه هذه الثـمرة ومهـدت الطريق لمدارس أخـرى بلغ فيـها التـصوير الفارسى أوج عظمته.

ولا شك فى أن أكـثر العـاملين على تكوين مـدرسـة بغداد كـانوا من مسيحى الكنيسـة الشرقية على اختلاف طوائفها كمـا كان منهم أبطال النهضة العلميـة لترجمـة الكتب القديمـة إلى اللغة العربيـة، وكما كـان منهم أبطال النهضـة العلمية لترجـمة الكتب القديمة إلى اللغـة العربية، وكمـا كان منهم أيضا أول الفنانين الذين علموا العـرب العمارة وصناعة الفسيـفساء. على أن المسلمين ما لبـثوا أن أخذوا من هذه الصناعات والفنون بنصـيب يذكر، وكان أول من فعل ذلك الفرس فـأصبح أكثر الفنانين منهم، واسـتطاعت إيران بعد الفتح المغولى أن تنمى مواهب أبنائها وأن تسـير بهذه البذور فى طريق الكمال متأثرة بالشـرق الأقصى وأواسط آسيا حتى نتج الفن الذى نعـرفه فى القرنين التاسع والعاشر الهجرى (الخامس عشر والسادس عشر).

هذا ولما كانت موضـوعات الصور فى مدرسة بغداد تتكرر بدون تـغيير كبير، فإن مـا وصل إلينا منها يعتبر مثالاً لما كان عليـه التصوير الإسلامى فى عصـوره الأولى بالرغم من أن أقـدم المخطوطات التى تشمل هذه الـصور لا يرجع إلى ما قبل منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى).

ومما يجب ملاحظته أن الصور فى مخطوطات مدرسة بغداد تكون جزءاً من المتن يقصد بها شرحه وتوضيحه، وليست ميدانا لإظهار المواهب الفنية؛ وهذه المدرسة عربية أكثر منها فارسية، والأشخاص فيها تلوح عليهم مسحة سامية ظاهرة فى الأنوف، تغطى وجوههم لحى سوداء، وفى وجوههم شىء كثير من النشاط ودقة التعبير، وليس فيها الرشاقة والدعة اللتان نعرفهما فى الفن الفارسى.

ولعل أبدع الصور فى مدرسة بغداد تلك التى نراها فى مقامات الحريرى، فأكثرها يدل على مهارة كبيرة فى تصوير الجموع وحركاتها المختلفة ودقة عظيمة فى تصوير الحيوانات(١).

على أن الشبه بين بعض صور هذه المدرسة وبين الصور عند مسيحى الكنيسة الشرقية يبلغ أحيانًا درجة لا نستبعد معها أن تكون هذه الصور الإسلامية من صنع المسيحيين أنفسهم على الرغم من القرون الخمس التى مضت بين ظهور الإسلام وتاريخ المدرسة التى نحن فى صددها، فأكاليل النور التى تحيط برؤوس الأشخاص وإيضاح الأنف بخط بارز من اللون والطريقة الاصطلاحية البسيطة التى ترسم بها الأشجار والملابس المزركشة والمزينة بالزهور وفروع الأشجار والملائكة ذوو الأجنحة المدببة، كل هذا وغيره نجده مشتركًا بين الصور عند مسيحى الكنيسة الشرقية وبين الصور التى رقمها فنانو مدرسة بغداد(٢) - ولعل هذا الشبه وتلك الصلة يرجعان إلى تأثر الفنين البيزنطى والإسلامى بالفن الساسانى كما يظهر ذلك جليًا فى صناعة النسيج.

---

(١) انظر اللوحة ٤ شكلى ٦ و ٧.

(٢) قارن اللوحتين السابعة والثامنة من Arnold : Painting in Islam بين صحيفتى ٦٤ و ٦٥.

اللوحة رقم (٤)

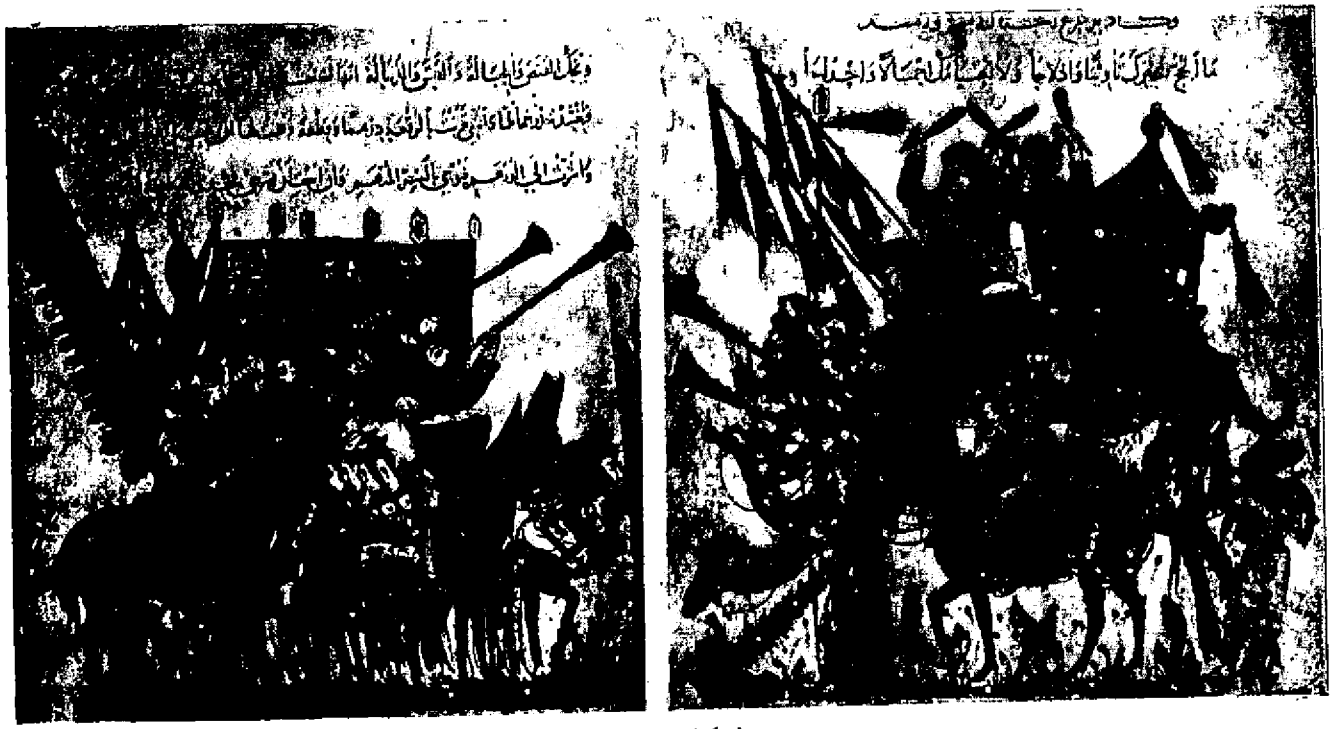

(شكلا ٦ و٧)

منظران من مقامات الحريرى - المدرسة العراقية سنة ٦٣٤هـ

من مخطوط شيفير بالمكتبة الأهلية بباريس - عن مارتن

ومن أهم مصورى هـذه المدرسة عبد الله بن الفضـل الذى كتب وصور سنة ٦١٩هـ (١٢٢٢) مخطوطًا من كتاب خواص العقاقير كانت منه صور فى مـجـمـوعـتى الدكـتـور زره (Sarre) ببـرلين والدكـتـور مـارتن (Martin) باستوكهلم[١]، والتأثير البيزنطى ظاهر فى أشخاص هذه الصور الذين يلبسون ملابس واسـعة مـزينة بفروع نبـاتية، وأوراق هذا المخطوط مـبعـثرة الآن فى متاحف العالم ومـجموعاته الفنية، ومنها واحدة فى متـحف المتروبوليتان فى نيويورك تمثل طبيبًا يحضر دواء للسعال، وقد استعملت فى هذه الصورة ألوان خمسـة: الأخضر والأزرق والأحمـر والأصفر والذهبى، وثنايا الملابس فـيها منسقـة وبعيدة من الطبـيعة حـتى أصبحت مـوضوعًا زخرفـيًا[٢]، ومن هذا المخطوط صورة أخرى فى متحف اللوفر تمثل أيضًا طبيبًا يحضر دواء[٣].

وقد كتب يحيى بن محـمود بن يحيى بن الحسن الواسطى سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧) نسخة من مقـامات الحريزى رقم فيه ماينوف على مـائة صورة يمثل فـيهـا نوادر أبى زيد السروجى وبديـع حيله، وهذا المخطوط مـحفـوظ الآن بالمكتبـة الأهلية بباريس أهداه إليـها المستـشرق شيفـير (Schefer). وكل هذه الصور وثائق قيمة عن الحياة والنظم الاجتماعية والعادات فى ذلك العصر[٤]، ومنها صـورتان تمثلان مـوكب عروس فى هودج على جـمل يشيـعه فـرسان يحملون الأعلام ويقـرعون الطبول ويعزفون على الآلات الموسيـقية[٥]؛ وبين كثير من هذه الصور وبين النقوش التى كشـفتها دار الآثار العربية على جدران

---

(١) راجع Migeon : Manuel d' Art Musulman ص١٢٦.

(٢) انظر Dimand: A Handhook of Mohammedan Decorative Arts ص١٩.

(٣) انظر Stchokine : Les Miniatures Parsanes ص٢٩.

(٤) انظر اللوحات ٩ و١٠ و١١ و١٢ من Blochet: Les enluminures des manuscrits

(٥) انظر اللوحة ٤ شكلى ٦ و ٧.

أحد الحمامات الفاطمية قرابة كبيرة، ولا غرابة فى ذلك، فإن سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ (١١٧١) كان إيذانًا بانتقال كثير من فنانى مصر إلى بلاد الجزيرة حيث أصبحت بغداد مركزاً كبيراً للفن والكتب.

وهناك نسخ أخرى من مقامات الحريرى موضحة بالصور الممتعة فى المكتبة الأهلية بباريس، وفى المتحف الأسيوى بلينينجراد، وفى من المتاحف والمجموعات[١].

وفى المتحف البريطانى مخطوط من مقامات الحريرى تاريخه سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣) كتب لعامل خراج فى دمشق، وبقى بعض صور الأشخاص فيها غير تام التلوين مما يظهر لنا الطريقة التى كان الفنانون يتبعونها فى تحديد الصور قبل تلوينها.

وفى مكتبة قينا مخطوط آخر من مقامات الحريرى أحدث عهداً وعليه توقيع أبى الفضل بن أبى إسحاق ومؤرخ سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٤)، وقد بدأت الصناعة تزول عنها بساطتها الأولى وتسير فى طريق التعقيد، ومن أبدع صور هذا المخطوط اثنتان: الأولى تمثل أميراً على عرش وبيده كأن على الطريقة الساسانية ويحف به رجال الحاشية ويحميه ملكان بأجنحة مزركشة، وأمام العرش موسيقيون ويهلوان يطربون الأمير[٢]، وتمثل الصورة الثانية شخصًا يزور صديقًا ألزمه المرض الفراش، وزينت ملابس الزائر وأصحاب البيت وسرير المريض بفروع نباتية وخطوط هندسية[٣]، وفى هذا المخطوط تأثر بفن التصوير فى أواسط آسيا.

---

(١) راجع Binyon, Wilkinson & Gray : Persian Miniature Painting ص٢٤ وما بعدها.

(٢) انظر اللوحة ٥ شكل ٨.

(٣) انظر شكل ١٨ من Kühnel: Miniaturmalerei...

اللوحة رقم (٥)

(شكل ٨)

أمير على عرشه وأمامه بهلوان المدرسة العراقية سنة ٧٣٤هـ

من مخطوط لمقامات الحريرى بالمكتبة الأهلية فى فينا

وقد ظن بعض العلماء أن جزءاً من هـذه الصور التى تنسب إلى مدرسة بغداد إنما صنع فى أفغانستان تحت رعاية الدولة الغزنوية حيث نظم الفردوسى الشاهنامة فى غرفـة تزينها الصور كما يقولون - ولكن الحـقيقة أنه ليس هناك دليل ثابت على أنه صنع فى أفغانستـان أو فى بخارى أو خيوه أو الرى صور تخالف فى الطراز ما ينسب إلى مدرسة بغـداد، فإن الأثر الفارسى كان سائداً فى شرق الإمبراطورية الفارسية وفى وسطها - وفضلاً عن ذلك فالخزف الذى ينسب إلى مدينة الرى يحمل نقوشًا كثيرة الشبه فى الصناعة واللون بتلك التى وصفناها فى هذا الفصل.

وهناك صور فـى مجمـوعة (البـوم) بمكتبة اسـتانبـول نشرها الأسـتاذ ساكسيان فى كتابة عن التـصوير الفارسى، وأرجع تاريخها إلى النصف الثانى من القرن السـادس الهجرى (النصف الثـانى من القرن الثانى عشـر الميلادى) مدعـيًا أنها من صناعـة هذه المدرسة التى ظهـرت فى شرقى إيران[1]، ولكن يخـالفه فى الرأى أكـثر مـؤرخى الفن الإسلامى، والواقع أن هذه الـصور لا يمكن إرجاعها إلى ما قبل العصر المغولى[2].

وقد امـتد أثر مدرسـة بغداد إلى بقـية أجزاء الإمـبراطورية الإسلامـية كسورية ومصر، وهناك أوراق من نسخـة من كتاب الحيل الميكانيكية للجزرى كتبها سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤) محمد بن أحمد بن ناصر الدين محمد الذى كان فى خدمـة الملك الصالـح صلاح الدين من المماليك البرجـية بمصر، وكـلها موزعـة بين المتاحف والمجمـوعات الأثرية فى أوروبا وأمـريكا - وفى اللوفر

---

(١) انظر A. Sakisian: La Miniature Persane ص٤٠ ومـا بعـدها. وانظر اللوحـة ٩ شكل ١٣.

(٢) راجع B. Gray: Persian Painting ص٣٦.

بباريس واحـدة منها تمثل سـاعة مائيـة وجههـا على شكل نصف دائرة ترتكز على حامل فيه جامات فيها طواويس[1].

وصفوة القول أن أهم ميزات مدرسـة بغداد هى تصوير الأشياء على ما هى عليه دون تجـميل أو تكلف، وأكـثر ما يـظهر تأثير مـسيـحى الشرق فى صناعتـها فى تصـوير الأشخـاص على الطريقة التى اسـتعملوها فـى تصوير قديسيهم وفلاسفة اليـونان، وفى التى تمثل فيها الأشخاص وثنايا الملابس؛ أما التأثير الإيرانى فظاهر فى الزخرفة، وفى النسب بين أجزاء الجسم المختلفة فى تصوير الأشخاص..

***

(١) انظر اللوحة ٢ شكل ٣ وقارن Stchoukine: Les Miniatures Persanes ص٣٠ - ٣٢.